امرأة فاضلة

إلى زوجتي — د. كرمن وديد

على رجاء اللقاء

خليل ثابت بك

رئيس تحرير المقطم

صفحة المرأة تبقى بيضا ...
المرأة الفاضلة تاج لبعلها ...
لعلها تمرها يفوق اللآلىء

(أمثال سليمان)

فجعت اسرة المقتطف والمقطم في الصيف الماضي في وفاة سيدتين كريمتين من سيداتها ، تأرجحت سيرتهما بعطر الفضل والحكمة ومكارم الاخلاق وهما السيدة فريدة مكاريوس قرينة المرحوم شاهين مكاريوس بك أحد منشئي هذه الدار والسيدة « إما » كريمته وقرينة خليل ثابت بك أطال الله عمره . والفصل التالي قطعة من الأدب العالي علاوة على كونها رثاء خارجاً من صميم نفس مكلومة وقلب زوج وأب فقد زوجة وأم أولاده وشريكة عمره ، وصورة بليغة للمرأة الفاضلة التي قال فيها سليمان الحكيم « إن ثمنها يفوق اللآلىء » . . . المحرر

أرقدي بسلام بين أكاليل الورد والرياحين . ولتصعد روحك الكريمة محمولة على أجنحة الأملاك الى خالقك العزيز في أعلى عليين — الفتاة الطاهرة والزوجة الوفية والأم الرؤوم والمربية الكاملة وربة البيت الحكيمة والعقيلة التي قال فيها وفي شبيلاتها الشاعر العربي ما قال لما فضل بعض النساء على الرجال

خمسة وثلاثون عاماً قضيناها معاً في وارف من ظل السعادة ونعيم مقيم من الهناء والصفاء في كنف حنانك الغامر وحبك الخالص ومودتك الصافية فنعمت عما لا ينعم به سوى الازواج الذين ترضى العناية عنهم بفضل الله لا بفضلهم . وألفت

هذه الحياة وحسبها باقية حتى انتضت الكارثة وراضت المنية سهمها وعدت عادية الزمان فغاب كوكب سعدي وهنائي ودونك بهجة حياتي وانضب صفاء الامل في عيني بأساً وتبدلت مظاهر الحياة واسودت أيام البيض . فقضينا في بحر من الغم والاسى ما امتدنا في حياتك الوقوف على ساحله فكيف نخوض الآن غماره ونجرع صاب مائه

وقطعنا مراحل هذه الحياة يداً بيد فبدأناها وحدنا الى أن حبتنا العناية الثمر فكان بطيب أرومتك وحسن شمائلك وطهارة نفسك ثمراً شهياً قرّت به أعيننا وتضاعفت بطيبه سعادتنا فامتزجت في بيتنا الموسيقى التي كنت تحبها وتجيد عزفها وصوتك العذب بموسيقى أصوات صغار ملائكتنا وهم يمجون ويمرحون ويلعبون فيطربوننا بابتسامهم وأنغامهم وسرورهم ويلينون ما في أنفسنا ويخشون علينا مطارق من بهجة الحياة فاجتزنا تلك المراحل بهناء وغبطة وصفاء الى ان سيرنا القضاء فجأة في طريق آخر ليس لنا به عهد ولا صلة وأوقفنا فوراً امام عتبة الابدية فاجتزت أنت بابها اليها بسلام وأوصد الباب في وجهي فافترقنا . ولولا التقى وحرصي على الفتاتين والصغير لآثرت اللحاق بك فلا تفترق أبد الدهر

كانت عواصف الحياة تهب فأسمع عجيجها وضجيجها وأصغي الى حفيف اوراق الشجر وهي تنوح وتأوه بفعلها فلم تخطئ تلك العواصف باب دارنا . فاذا هبّ منها شيء علينا عرفت كيف تدرئينه بحكمتك أو تخففين فعله بحسن تدبيرك ومضاء ذهنك وصفاء قلبك حتى هبت العاصفة الجائحة الجامحة فهدّت حياتنا وحطّم القضاء وطوي سقر الرجاء وضاعت حيل الاطباء ولم ينفع سهر البنين وحنو البنات وصلاة الجميع وابتهالهم الى بارىء النسمات

وأطوف الآن في غرف الدار فأرى صورة وجهك الصبيح وأبصر آثار يديك ومظاهر سلامة ذوقك وجمالي عنايتك واتقانك ثم آوي الى مخدعنا أتلمس الراحة

كما يتسمها الجريح والمذبوح فاذا سكن الدم وهدأ الصوت وكل البدن وأغمضت عيناي اني اني في حلم وان المصاب رؤيا تنتبه عيني الآن من اغفاءة الهم وزوال الكابوس فلا تلبث الحقيقة ان تلوح لي من خلال سجف الظلام وأراني وحيداً فريداً فيخفق قلبي أسىً ويسيل دمع اليأس بضياع الرجاء

وليس الحداد حداداً وتتخذه دلالة وشعاراً فاذا حان وقت المبيت خلعناه أما الذي لا يخلع مهما طال الزمان وسيلازمنا في النهار والليل فذاك المستقر في صدورنا واللوعة التي تحرق أكبادنا ومرارة الفراق التي استقرت في شغاف قلوبنا

أقول — والله على ما أقول شهيد — انك أيتها الحبيبة ما عرفت للحقد معنى ولا أضمرت لمخلوق بغضاً أو ضغناً ويقيني أنك غادرت الدنيا وليس فيها من عارفيك الا كل آسف عليك وذاكر لسجاياك ومعترف بما طبعت عليه من حب الصفاء وكره الخصام والشقاق وايثار السلام والوفاق

وكنت برقة طبعك وعذب حديثك وابتهاجك بالحياة وفهمها زينة المجالس ما دخلت مقام هناء إلا زدته غبطة وما حللت مجلس حزن او عزاء الا سكبت فيه من جميل القول وصدق العاطفة بلسماً يخفف من وقع الألم ويهوّن ثقل المصاب

وأنت التي أحبّت بهجة الحياة وكانت نوراً يفيض بهذه البهجة على الذين حولك ولاسيما أهل بيتك فما اليوم نورك وغادرت حياة كنت من عناصر محاسنها إيثاراً لحياة أخرى تعدين فيها لي بيتاً سقلاً تتوافر فيه أسباب الهناء كما صنعت في هذه الدنيا

وانا الذي كنت انت سر نجاحه في ما أصاب ومصدر راحته وركن ارتياحه لعطفك وحنانك وحبك ووفائك وحكمتك ومكارم خلقك وكرم طباعك وصدق اخلاصك من يطارده الآن همي ويكشف غمي ويمحو كآبتي ومن يمسح دمعي ويبرد لوعتي ومن يخفف حزني ويريح كربتي

لقد كنت واسطة عقدنا فانزعك القضاء . وانا اليوم المسؤول الى الله واليك

بأن أصون بانيه واحرص على سمعته ولا آليه وسأفعل الى ان يسترد الله وديعة نفسي فطيبي نفساً وقرّي عيناً فعهدي لك مقدس ما دام في عرق ينبض

وما كنت اريد ان تسبقني يا سابقة الى كل معروف وكان بل كنت اتوقع ان تكون تعزيتي عند غروب شمس حياتي كما كنت عوني فيما مضى فتجلسي بجانبي وانا مسجى على سرير مرضي الاخير بعد ان تخفف أوجاعي وآلامي كما كنت تضعين في هذه السنين وتسمضي عيني بأناملك فاذهب من هذه الدنيا قرير العين ناعم البال

وقد عودتني ان آتي عليك اتكالي فأصبحت اليوم كمن فوّضت اركان عزه وأظلمت منارة هداه فلا يدري أنّى يلتمس الحكمة والرشاد

ويعزونني بإيراد الامثلة والشواهد ولست بجاهل لمعناها ولا منكر لآياتها ولكن شعور من يرى ناراً تلتهب امامهُ غير احساس من يكوي الجمر احشاءه

من لي بان يزيل الالم ساعة فأريك بغير هذا القلم المضطرب وأنيك بعض حقك عليّ وأصوغ لك ما أنت اهلٌ لهُ من عقود الشكر وقلائد الاعتراف بالجميل وصدق الوفاء . ولكن اذا عجزت وغاب جثمانك عنا فروحك قائمة بيننا وسيرتك ماثلة أمامنا وصورتك منقوشة على صفحات قلوبنا وأريج فضائلك يعطر أرجاء بيتنا وشمائلك قدوة لنا وذكراك مقدسة في هيكل لك في خفايا ضلوعنا

ما أصعب الفراق وما أمرّ مذاقه كأسه . ولكننا سنلتقي — أجل سنلتقي ولن يطول الفراق فالرحمن الذي جمعنا اولاً سيجمع شملنا ثانياً

يا حبيبة الصبا

يا شريكة العمر

يا أم أولادي

يا زوجتي !